الضر

عناصر الموضوع

مفهوم الضر	٢٣٢
الضر في الاستعمال القرآني	٢٣٣
الألفاظ ذات الصلة	٢٣٤
الأساليب القرآنية في عرض الضر	٢٣٦
وسائل دفع الضر	٢٤١
آثار نزول الضر	٢٤٧

Made searchable using ScribeTools.com

مفهوم الضر

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: الضاد والراء ثلاثة أصول، الأول: خلاف النفع، والثاني: اجتماع الشيء، والثالث: القوة[١]، والضر -بالفتح-: مصدر ضررته ضرًا، ضد النفع[٢]، والضر -بالضم-: اسم ما يضر، وهو عدم الخير، وهو كل ما ينال الإنسان من الهزال وسوء الحال، أي: ما كان من سوء الحال والفقر والشدة والبلاء في البدن[٣].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب الأصفهاني: «الضر: سوء الحال، إما في نفس؛ لقلة العلم والفضل والعفة، وإما في بدنه؛ لعدم جارحة ونقص، وإما في حالة ظاهرة من قلة مال وجاه، كما في قوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء: ٨٤]. فهو محتمل لثلاثتها، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾[يونس: ١٢]، وقوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾[يونس: ١٢]. يقال: ضَر ضُرًا: جلب إليه ضُرًا.

وقوله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١]. ينبههم على قلة ما ينالهم من جهتهم، ويؤمنهم من ضرر يلحقهم نحو: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾[آل عمران: ١٢٠]، و﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا﴾[المجادلة: ١٠]، ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ﴾[البقرة: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾[البقرة: ١٠٢]، وقال: ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ [الحج: ١٢]، وقوله: ﴿يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ [الحج: ١٣].

فالأول يعني به الضر والنفع اللذان بالقصد والارادة؛ تنبيهًا أنه لا يقصد في ذلك ضرًا ولا نفعًا؛ لكونه جمادًا، وفي الثاني يريد ما يتولد من الاستعانة به ومن عبادته، لا ما يكون منه بقصده»[٤].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٦٦٣

(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ١١٩

(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ٣/ ٢١٠٨، الصحاح، الجوهري ٢/ ٦١٩، المخصص، ابن سيده، ٣/ ٧٠، لسان العرب، ابن منظور، ٨/ ٤٤.

(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٠٣-٥٠٤.

الضر في الاستعمال القرآني

ورد الجذر «ض ر ر» في القرآن الكريم (٧٤)، وتكرر لفظ «الضر» (٦٦) مرة [١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٢٢	﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ [التوبة:٣٩]
المصدر	٢٩	﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ [يونس:١٢]
اسم مصدر	٩	﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ [البقرة:١٧٧]
اسم	١	﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ﴾ [النساء:٩٥]
اسم فاعل من الثلاثي	٢	﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢]
مصدر من الرباعي	٢	﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾ [البقرة:٢٣١]
اسم فاعل من الرباعي	١	﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ [النساء:١٢]

وجاء الضر في القرآن بمعناه في اللغة وهو: سوء الحال إما في النفس، أو البدن، أو المال [٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤١٩-٤٢٠.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٥٠٣.

Made searchable using ScribeTools.com

الألفاظ ذات الصلة

١ البؤس:

البؤس لغة:

الباء والهمزة والسين أصلٌ واحدٌ: وهو الشدة وما ضارعها. فالبأس: الشدة في الحرب. ورجلٌ ذو بأسٍ وبئيسٌ أي: شجاعٌ. والبؤس: الشدة في العيش. والمبتئس: المفتعل من الكراهة والحزن[١]، قال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧].

والبؤس هو والبأس: الشدة، والقوة، والضرر، والمكروب، لكن البؤس في الفقر والحرب أكثر، والبأس والبأساء في الشكاية والتنكيل أكثر[٢].

وقيل: البأساء والبؤس والضراء: الزمانة في الجسد[٣]، وقيل: البأساء: الفقر والشدة، والضراء: المرض والزمانة[٤].

البؤس اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين البؤس والضر:

قيل: البؤس اسم بمعنى الشدة وهو الفقر والمسكنة، ومنه يقال: فلان في بؤس وشدة، وأما الضراء فالأقرب فيه أنه ورود المضار عليه من الآلام والأوجاع وضروب الخوف، وقيل: البأساء عبارة عن تضييق جهات الخير والمنفعة عليه، والضراء عبارة عن انفتاح جهات الشر والآفة والألم عليه[٥].

٢ الأذى:

الأذى لغة:

أذي: الهمزة والذال والياء أصلٌ واحدٌ: وهو الشيء تتكرهه ولا تقر عليه[٦]، والأذى قد يكون بالكلام أو بالفعل، قال تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٢٨.
(٢) الكليات، الكفوي ١/ ٢٤٩.
(٣) تفسير الصنعاني، ١/ ٦٦
(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري، ١/ ٢٤٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٢٣٤، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١/ ١٩٤، وفتح القدير: الشوكاني، ١/ ١٧٣.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي، ٦/ ١٧-١٨.
(٦) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٧٨.

﴿لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١].

قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ معناه: لن يصيبكم منهم ضرر في الأبدان ولا في الأموال، وإنما هو أذى بالألسنة(١).

الأذى اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين الضر والأذى:

الأذى: هو الألم الخفيف وهو لا يبلغ حد الضر(٢).

٣ السراء:

السراء لغة:

اليسر، والضراء: العسر، وقيل: كثرة المال وقلته(٣)، وقيل: السراء: الرخاء، والضراء: الشدة، وقيل: السراء في الحياة، والضراء بعد الموت(٤).

السراء اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين الضراء والسراء:

علاقة تضاد، فالضراء ضد السراء.

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٩٠.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ١٩٢.
(٣) البسيط، الواحدي ١/ ٢٣٢.
(٤) فتح القدير: الشوكاني، ١/ ٣٨١

Made searchable using ScribeTools.com

الأساليب القرآنية في عرض الضر

عرض القرآن الكريم الضر في ثلاث صور مختلفة، وهي:

أولًا: نفي إلحاق الضر بالله تعالى:

الله تعالى منزه عن أن يتضرر بكفر كافر وفسق فاسق[1].

قال تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦-١٧٧].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۚ وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٣٢] وغيرها.

ومجمل أقوال المفسرين في قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ أن من يريد ضر الله تعالى، فما ضر إلا نفسه، بفوات الإيمان في الدنيا، وحصول العذاب الأليم في الآخرة، بأن لا يجعل لهم نصيبًا في الآخرة من ثوابه، وخذلهم فلم يوفقهم لما وفق إليه أولياءه[2]؛ لأن الله تعالى لا يجوز عليه المضار والمنافع[3]، وأنه غني عنه، وسيقيم دينه، ويعز عباده المؤمنين[4]. وقيل: هذا تهديد معناه: هم يظنون الشقاق مع الرسول، وهم به يشاقونه، وليس كذلك، بل الشقاق مع الله، فإن محمدًا رسول الله، ما عليه إلا البلاغ، فإن ضروا ضروا الرسل، لكن الله منزه عن أن يتضرر بكفر كافر وفسق فاسق[5].

وبعضهم أول الآية ردًا وإنكارًا؛ لظن الخوف[6]، والكلام على حذف مضاف، والمراد أولياء الله مثلًا؛ للقرينة العقلية عليه، وفي حذف ذلك وتعليق نفي الضرر به تعالى تشريف للمؤمنين، وإيذان بأن مضارتهم بمنزلة مضارته سبحانه وتعالى، وفي ذلك مبالغة في التسلية[7]، وقوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ﴾ [هود: ٥٧].

يعني: إن لم تؤمنوا به فلا تنقصون من ملكه شيئًا، ويقال: إهلاككم لا ينقصه شيئًا،

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٦٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٥٨.

(٣) الكشاف، الزمخشري ١/ ٤٥٠.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٧/ ٢٥٢، وتفسير السمعاني، ١/ ٣٦٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤/ ٢٢٦، والبحر المحيط، أبو حيان، ٣/ ٧٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٥٠.

(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٦٢.

(٦) انظر: المصدر السابق ٩/ ٨٥.

(٧) روح المعاني، الألوسي ٤/ ١٣٣.

إن ربي على كل شيء حفيظ[1].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٩].

أي: لا تضروا الله بترك امتثال أمره بالنفير شيئًا أو لا تضروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بترك نصرته والنفير معه شيئًا، ومن جملة مقدوراته تعذيبكم والاستبدال بكم[2].

والكناية -في قول الحسن- راجعة إلى الله تعالى، أي: لا تضروا الله؛ لأنه غني عن العالمين، وفي قول الباقين يعود إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، أي: لا تضروا الرسول؛ لأن الله عصمه من الناس، ولأنه تعالى لا يخذله إن تثاقلتم عنه[3].

روى مسلم بسنده عن أبي ذرٍ عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: (**يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني**)[4].

ثانيًا: نفي إلحاق الضرر من المخلوق للمخلوق:

الله تعالى متولٍ أمورنا الدينية والدنيوية، فعلينا الرضا بأقداره وليس في أيدينا من الأمر شيء، قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون، وليعتمدوا عليه وحده في جلب مصالحهم، ودفع المضار عنهم، وليثقوا به في تحصيل مطالبهم، وأما من توكل على غيره، فإنه مخذول، غير مدرك لما أمل[5].

وأنه لن يصيبنا خير ولا شر، ولا خوف ولا رجاء، ولا شدة ولا رخاء، إلا ما هو مقدر علينا مكتوب عند الله، وكونه مكتوب عند الله يدل على كونه معلومًا عند الله مقضيًا به عنده، فإن ما سواه ممكن، والممكن لا يترجح إلا بترجيح الواجب، والممكنات بأسرها منتهية إلى قضائه وقدره[6].

لذا ورد نفي إلحاق الضر من المخلوق للمخلوق في آيات كثيرة، وبين الله فيها أن النفع والضر لا يحصلان إلا بمشيئته[7].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ [النساء:

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ١٥٦، مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ١٢، المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣/ ١٨٢.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٣٦٢.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٣٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٣٥٩، روح المعاني، الألوسي، ١٠/ ٩٦.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٧٧.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٣٩.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٦٩.
(٧) المصدر السابق ١٥/ ٦٨.

Made searchable using ScribeTools.com

١١٣] دليلٌ على ذلك، لذا قيل: وما يضرك هؤلاء الذين هموا لك أن يزيلوك عن الحق في أمر هذا الخائن من قومه وعشيرته من شيء؛ لأن الله مثبتك ومسددك في أمورك، ومبين لك أمر من سعوا في إضلالك عن الحق في أمره، ففاضحه وإياهم، فأنت يا محمد صلى الله عليه وسلم حفظت الله فحفظك وسددك[١].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦].

قيل هو: عيسى بن مريم، أي: لا يستطيع أن يضركم بمثل ما يضركم به الله من البلايا والمصائب في الأنفس والأموال، ولا أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم به من صحة الأبدان والسعة والخصب، ولأن كل ما يستطيعه البشر من المضار والمنافع فبأقدار الله وتمكينه، فكأنه لا يملك منه شيئًا، وهذا دليل قاطع على أن أمره مناف للربوبية حيث جعله لا يستطيع ضرًا ولا نفعًا، وصفة الرب أن يكون قادرًا على كل شيء لا يخرج مقدر على قدرته[٢].

وهذا دليل آخر على فساد قول النصارى، وهو يحتمل أنواعًا من الحجة، أن اليهود كانوا يعادونه ويقصدونه بالسوء، فما قدر على الإضرار بهم، وكانوا أنصاره وصحابته يحبونه، فما قدر على إيصال نفع من منافع الدنيا إليهم، والعاجز عن الإضرار والنفع كيف يعقل أن يكون إلهًا؟![٣].

فإذا كان هذا عيسى بن مريم الذي وصفه قومه بالألوهية والربوبية وغيرها من الأوصاف، ما استطاع دفع الضرر عن نفسه، ولا عن غيره، فغيره أعجز من أن يلحق ضررًا بغيره، إلا بإذنه تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

قيل: هذا وصف لكل مخلوق أنه لا ينفع ولا يضر، وإنما النافع والضار هو الحق تعالى[٤].

بعد أن تبين لنا نفي إلحاق الضرر من المخلوق للمخلوق إلا بإذن الله، فلابد من الإرشاد إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار بالإتيان بالأسباب التي تدفع الضر عن المخلوقين، والتي سيأتي بيانها -إن شاء الله-؛ لأن المنفي عنه هو استطاعة المخلوق للضر، وليس نفي وقوع الضر، فوقوعه ثابت بإذن الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا

(١) جامع البيان، الطبري ٥/ ٢٧٥.
(٢) الكشاف، الزمخشري ١/ ٦٩٨.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٥٢-٥٣.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٧/ ١٣٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٧٥.

﴿يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠][1].

وفي الحديث عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوما، فقال: (يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فسال الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك فلن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك فلن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)[2].

ثالثًا: النهي عن إلحاق الضرر في التعامل:

١. والد المولود ووالدته.

قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾ أي: وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف، أي: بما جرت به عادة أمثالهن في بلدهن من غير إسراف ولا إقتار، بحسب قدرته في يساره، وتوسطه وإقتاره، كما قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

قال الضحاك: إذا طلق زوجته وله منها ولد، فأرضعت له ولده، وجب على الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف.

وقوله: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾ أي: بأن تدفعه عنها؛ لتضر أباه بتربيته، ولكن ليس لها دفعه إذا ولدته حتى تسقيه اللبن الذي لا يعيش بدون تناوله غالبا، ثم بعد هذا لها دفعه عنها إذا شاءت، ولكن إن كانت مضارة لأبيه، فلا يحل لها ذلك، كما لا يحل له انتزاعه منها لمجرد الضرار لها، ولهذا قال: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ﴾ أي: بأن يريد أن ينتزع الولد منها إضرارا بها.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ قيل: في عدم الضرار لقريبه، قاله مجاهد والشعبي والضحاك، وقيل: عليه مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على والدة الطفل والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها، وهو قول الجمهور، وقد استدل بذلك من ذهب من الحنفية والحنابلة إلى وجوب نفقة

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ١/ ٣٤٦، المحرر الوجيز في الكتاب العزيز، ابن عطية ١/ ٤٩٨.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، ٤/ ٦٦٧، رقم ٢٥١٦.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣١٧، رقم ٧٩٥٧.

Made searchable using ScribeTools.com

الأقارب بعضهم على بعض، وهو مروي عن عمر بن الخطاب وجمهور السلف[١]، ومن هدايات الآية: أنه عبر عن الوالد بالمولود له؛ إيماء إلى أنه الحقيق بهذا الحكم؛ لأن منافع الولد منجزة إليه، وهو لاحق به ومعتز به في القبيلة، حسب مصطلح الأمم، فهو الأجدر بإعاشته، وتقويم وسائلها[٢]، وفي الآية دلالة على: «على وجوب نفقة الأقارب المعسرين، على القريب الوارث الموسر»[٣].

٢. الكاتب والشهود.

قال تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾.

قال الطبري رحمه الله: «معنى ذلك: ولا يضار كاتب ولا شهيد، بمعنى: ولا يضارهما من استكتب هذا أو استشهد هذا بأن يأبى على هذا إلا أن يكتب له، وهو مشغول بأمر نفسه، ويأبى على هذا إلا أن يجيب إلى الشهادة وهو غير فارغ، وإنما قلنا هذا القول؛ لأن الخطاب من الله عز وجل في هذه الآية من مبتدئها إلى انقضائها على وجه افعلوا أو لا تفعلوا، إنما هو خطاب لأهل الحقوق والمكتوب بينهم الكتاب والمشهود لهم أو عليهم بالذي تداينوه بينهم من الديون، فأما ما كان من أمر أو نهي فيها لغيرهم، فإنما هو على وجه الأمر والنهي للغائب غير المخاطب كقوله: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وكقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وما أشبه ذلك، فالواجب إذا كان المأمورون فيها مخاطبين بقوله: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

أشبه منه بأن يكون مردودا على الكاتب والشهيد، ومع ذلك إن الكاتب والشهيد لو كانا هما المنهيين عن الضرار لقيل: وإن يفعلا فإنه فسوق بهما، لأنهما اثنان، وإنما غير مخاطبين بقوله: ﴿وَلَا يُضَآرَّ﴾ بل النهي بقوله: ﴿وَلَا يُضَآرَّ﴾ نهي للغائب غير المخاطب، فتوجيه الكلام إلى ما كان نظيرا لما في سياق الآية، أولى من توجيهه إلى ما كان منعدلا عنه»[٤].

وقال ابن عاشور رحمه الله: «نهي عن المضارة، وهي تحتمل أن يكون الكاتب والشهيد مصدرًا للإضرار، أو أن يكون المكتوب له والمشهود له مصدرًا للإضرار؛ لأن (يضار) يحتمل البناء للمعلوم وللمجهول، ولعل اختيار هذه المادة هنا مقصود؛ لاحتمالها حكمين؛ ليكون الكلام موجهًا فيحمل على كلا معنييه؛ لعدم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٧٧.
(٢) التحرير والتنوير ٢/ ٤١١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٠٤.
(٤) جامع البيان، الطبري ٥/ ١١٧.

تنافيهما، وهذا من وجه الإعجاز.

والمضارة: إدخال الضر بأن يوقع المتعاقدان الشاهدين والكاتب في الحرام والخسارة، أو ما يجر إلى العقوبة، وأن يوقع الشاهدان أحد المتعاقدين في إشاعة حق أو تعب في الإجابة إلى الشهادة. وقد أخذ فقهاؤنا من هذه الآية أحكامًا كثيرة تتفرع عن الإضرار؛ منها ركوب الشاهد من المسافة البعيدة، ومنها ترك استفساره بعد المدة الطويلة التي هي مظنة النسيان، ومنها استفساره استفسارًا يوقعه في الاضطراب، ويؤخذ منها أنه ينبغي لولاة الأمور جعل جانب من مال بيت المال لدفع مصاريف انتقال الشهود وإقامتهم في غير بلدهم وتعويض ما سينالهم من ذلك الانتقال من الخسائر المالية في إضاعة عائلاتهم، إعانة على إقامة العدل بقدر الطاقة والسعة»[1] والآية تدل على النهي عن مضارة الكاتب والشهود.

(١) التحرير والتنوير ١/ ٣١٢.

وسائل دفع الضر

هناك عدة وسائل لدفع الضر في القرآن الكريم، منها:

أولًا: الالتجاء إلى الله تعالى:

يخبرنا الله تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، فإنه مالك كل شيء وخالقه وربه، قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾[النحل: ٥٢].

قال ابن عباس ومجاهد: أي: دائمًا، وقيل: واجبًا، قيل: خالصًا، أي: له العبادة وحده ممن في السموات والأرض، كقوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾[الزمر: ٣].

ثم أخبر أنه مالك النفع والضر، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾[النحل: ٥٣].

وأن ما بالعباد من رزق ونعمة وعافية ونصر فمن فضله عليهم، وإحسانه إليهم، وعلموا أن كل ما يتقلبون فيه من نعمة منه سبحانه، ثم أخبر سبحانه عن طبيعة الإنسان من حيث هو، إذا مسه الضر، من مرض، أو مصيبة اجتهد في الدعاء، وسأل الله في

Made searchable using ScribeTools.com

جميع أحواله؛ قائمًا وقاعدًا ومضجعًا، وفائدة ذكر هذه الأحوال: أن المضرور لا يزال داعيًا، ولا يفتر عن الدعاء حتى يزول عنه الضر، فهو يدعونا في حالاته كلها[1]، وألح في الدعاء؛ ليكشف عنه ضره، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ﴾ قال ابن عباس: يريد الأسقام والأمراض والحاجة، ﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ ترفعون أصواتكم إليه بالاستغاثة، يقال: جأر يجأر جئورًا[2]، ويقال: جأر الرجل إلى الله، أي: تضرع بالدعاء[3]، قال الأعشى:[4]

فطافت ثلاثًا بين يومٍ وليلةٍ وكان النكير أن تضيف وتجأرا

فذكر الله تعالى: أن الإنسان في وقت الكرب، يبتهل إلى ربه بالدعاء في جميع أحواله، فإذا فرج الله كربه، أعرض عن ذكر ربه ونسي ما كان فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

وقوله: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩].

وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

وقوله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٣][5].

كل هذه الآيات تشير إلى لجوء الإنسان وقت الضر إلى إله واحد، أحد صمد، ولعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا هو. حتى المشركون الذين عبدوا من دون الله أصنامًا، يتوجهون إليها وقت الرخاء، إذا أصابهم الضر نسوا ما كانوا يعبدون من قبل، ورجعوا إلى الفطرة السليمة، وتضرعوا إليه تعالى؛ لعلمهم أنها لا تنفع ولا تضر، حتى فرعون الذي طغى وتجبر حين توسط البحر وعلم أن لا ملجأ من الله إلا إليه كما في قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣١٧، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ١٢٠.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ١٢١، زاد المسير، ابن الجوزي، ٤/ ٤٥٧.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ١١٤.
(٤) انظر: أدب الكاتب، ابن قتيبة الدينوري، ١/ ٢١٧.
ومنهم من نسبه للنابغة الجعدي، انظر: شرح أدب الكاتب، الجواليقي ١/ ٩٩.
(٥) انظر: تفسير السمرقندي، ٢/ ١٥٢، تفسير السمعاني ٢/ ٣٦٩.

﴿ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[يونس: ٩٠].

وكان من قبل يقول: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[القصص: ٣٨].

وقال تعالى عنه: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

فوجب على الإنسان أن يكون مشغولًا بالمنعم وقت النعمة، وملتجئًا إليه في كل أوقاته.

قال القرطبي: «وهذه الحالة التي ذكرها الله تعالى لا تختص بأهل الكفر، بل تتفق لكثير من المسلمين، تلين ألسنتهم بالدعاء وقلوبهم بالخشوع والتذلل، عند نزول ما يكرهون، وتضرعوا لرفع ما نزل بهم من الضر ودفع ما أصابهم من المكروه، ومما يدل على أن الآية تعم المسلم والكافر، كما يشعر به لفظ الناس ولفظ الإنسان»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[الإسراء: ٦٧].

نموذجًا للالتجاء إلى الله وقت الشدة والضر، أي: ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى، كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فارًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فتح مكة، فذهب هاربًا فركب في البحر ليدخل الحبشة، فجاءهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني منكم إلا أن تدعو الله وحده، فقال عكرمة في نفسه: والله إن كان لا ينفع في البحر غيره، فإنه لا ينفع في البر غيره، اللهم لك علي عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن، فلأضعن يدي في يد محمد، فلأجدنه رءوفًا رحيمًا، فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم وحسن إسلامه[(٢)]، وهكذا الإنسان حتى الكافر، إذا ضاقت به الحيل، ولم يجد منفذًا، لجأ إلى المنفذ الحقيقي، الذي لا ينسد.

ثانيًا: اتخاذ الأسباب الواقية:

من وسائل دفع الضر:

١ . اتخاذ الأسباب الواقية قبل وقوع الضرر.

فالوقاية خير من العلاج، فكل من رزقه الله تعالى الهداية والسداد والتوفيق والرشاد، فإنه مستثنى من قوله تعالى:

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٨/ ٣٩٧، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٢٩.

(٢) صححه ابن الملقن في البدر المنير ٩/ ١٥٣، وعبدالحق الإشبيلي في الأحكام الصغرى ٥٤٩.

Made searchable using ScribeTools.com

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[يونس: ١٢].

هذه الآية في وصف حال غير المؤمن، أما فالمؤمن فإنه يعرف الله في السراء والضراء، ولا تنقطع صلته بالله على أي حال كان، كما قال صلى الله عليه وسلم: **(عجبًا لأمر المؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرًا له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن)**[(١)].

فمن كان في وقت النعمة مشغولًا بالمنعم، لزم أن يكون وقت البلاء مشغولًا بالمبتلي. وإذا كان المنعم والمبتلي واحدًا كان نظره أبدًا على مطلوب واحد، وكان مطلوبه منزهًا عن التغيير مقدسًا عن التبدل، ومن كان كذلك وقت البلاء، وفي وقت النعماء، غرقًا في بحر السعادات، واصلًا إلى أقصى الكمالات[(٢)].

ومن شأنه أن يكون كثير الدعاء والتضرع في أوقات الراحة والرفاهية، حتى يكون مجاب الدعوة وقت المحنة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب، فليكثر الدعاء عند الرخاء)**[(٣)].

٢. التقوى والصبر والتوكل.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[آل عمران: ١٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٧٧].

في الآية الأولى يرشدهم الله تعالى إلى السلامة من شر الأشرار، وكيد الفجار، باستعمال الصبر والتقوى والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته، ومن توكل على الله كفاه، ثم شرع في ذكر قصة غزوة أحد وما كان فيها من الاختبار لعباده المؤمنين، والتميز بين المؤمنين والمنافقين وبيان الصابرين[(٤)].

وقيل: فإذا أتيتم بالأسباب التي وعد الله عليها النصر -وهي الصبر والتقوى- فلن

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خيرٌ، رقم ٢٩٩٩.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٤١-٤٣.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة، ٥/ ٤٦٢، رقم ٣٣٨٢.
قال الترمذي: غريب.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٧٨، رقم ٦٢٩٠.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٤/ ٦٨، المحرر الوجيز، ١/ ٤٩٨.

يضركم مكرهم، بل يجعل الله مكرهم في نحورهم؛ لأن محيط بهم علمه وقدرته، فلا منفذ لهم، ولا يخفى عليهم منهم شيء[1].

٣. الرضا بقضاء الله وقدره.

ومثاله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وقوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

فجعلوه أسوة وقدوة عندما يصيبهم الضر[2].

إلا أن هناك من يرى أن الشكوى تقدح في الصبر، فبين العلماء أن الشكوى مع الرضا بقضاء الله لا تقدح في الصبر، وفي ذلك قيل: أليس أن الشكوى تقدح في كون أيوب صابرًا؛ لأنه قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ الآية؟.

الجواب: قال سفيان بن عيينه رحمه الله: «من شكا إلى الله تعالى فإنه لا يعد جزعًا إذا كان في شكواه راضيًا بقضاء الله؛ إذ ليس من شرط الصبر استحلاء البلاء، ألم تسمع قول يعقوب عليه السلام ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦]»[3].

واعلم أن المؤمن إذا ابتلي ببلية ومحنة وجب عليه أن يكون راضيًا بقضاء الله غير معترض بالقلب واللسان عليه، وإنما وجب عليه ذلك؛ لأن الله تعالى مالك على الإطلاق، وملك بالاستحقاق، فله أن يفعل في ملكه ما يشاء، كما يشاء، ولأنه تعالى حكيم على الإطلاق منزه عن فعل الباطل والعبث، فكل ما فعله فهو حكمة وصواب، وإذا كان كذلك فحينئذ يعلم أنه تعالى إن أبقى عليه تلك المحبة فهو عدل، وإن أزالها فهو فضل، فحينئذ عليه الصبر والسكوت وترك الغلق والاضطراب[4].

٤. إصلاح النفوس.

بفعل الخيرات ولزوم الشرع بما فيه من جهاد وأمر بمعروف ونهي عن المنكر، والاستقامة على الدين، وطاعة الله وغيرها.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥].

ذكر السمرقندي: من أسباب دفع الضر، ما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: سئل عن هذه الآية فقال: إذا رأيتم شحًا مطاعًا وهوىً متبعًا ودنيا مؤثرةً وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليكم بخويصة أنفسكم. وروى عمر بن جابر اللخمي عن أبي أمية قال:

(١) انظر: فتح القدير: الشوكاني، ٢/ ٨٤-٨٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٤٥.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٢٩.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٤١-٤٣.
(٤) المصدر السابق ٢٢/ ١٨١.

Made searchable using ScribeTools.com

سألت أبا ثعلبة الخشني عن هذه الآية فقال: لقد سألت عنها خبيرًا، سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (**يا أبا ثعلبة ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، فإذا رأيت دنيا مؤثرة وشحًا مطاعًا وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك، فإن من بعدكم أياما الصابر المتمسك يومئذ بمثل الذي أنتم عليه له كأجر خمسين عاملًا. قالوا يا رسول الله: كأجر خمسين عاملًا منهم؟ قال: لا بل كأجر خمسين عاملًا منكم**)[1].

وقيل: حفظ النفس من ملابسة المعاصي والإصرار على الذنوب[2].

وقيل: اجتهدوا في إصلاحها وكمالها وإلزامها سلوك الصراط المستقيم، فإنكم إذا أصلحتم لا يضركم من ضل عن الصراط، ولم يهتد إلى الدين القويم، إنما يضر نفسه، ولا يتم هدى الإنسان إلا بالإتيان بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[3].

وقال ابن زيد: معنى الآية ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ في الاستقامة على الدين ولا يضركم ضلال الأسلاف إذا اهتديتم[4].

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ يقول: إذا ما أطاعني العبد فيما أمرته من الحلال والحرام فلا يضره من ضل إذا عمل بما أمرته به. وأخرج ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس الآية: ما لم يكن سيفًا أو سوطًا[5].

ثالثًا: المصالحة والتفاهم:

وذلك بمصانعة أهل الدنيا لدنياهم، وتحب أهل الأخرة لآخرتهم، وتخفي ذنبك بينك وبين ربك فإنك إن فعلت ذلك فلا يضرك من ضل إذا اهتديت. وذلك بأن تحب من أحب الله من أحمر وأبيض، وأن تجتنب الغيب[6].

وقيل: اشتغال الإنسان بخاصة نفسه وتركه العرض لمعائب الناس والبحث عن أحوالهم، فإنهم لا يسألون عن حاله، فلا يسأل عن حالهم، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[المدثر: ٣٨].

(١) أخرجه أبو داوود في سننه، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، ٤/ ١٢٣، رقم ٤٣٤١، والترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، ٥/ ٢٥٧، رقم ٣٠٥٨. قال الترمذي: حديث حسن غريب. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ١٣٤٦، رقم ٢٣٤٤. وانظر: تفسير السمر قندي، ١/ ٤٤٥-٤٤٥، معالم التنزيل، البغوي، ٢/ ٧٢.

(٢) البسيط، الواحدي ١/ ٣٣٨-٣٣٩، تفسير الجلالين، ص١٥٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٤٦.

(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٥٠.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٢٥-١٢٢٨.

(٦) الدر المنثور، السيوطي ٣/ ٢١٨.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[الأنعام: ١٦٤].

وقوله تعالى: ﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الاسراء: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[فاطر: ١٨][1].

ومن صور المصالحة والتفاهم في الإسلام، والتي كانت سببًا لدفع الضر ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما وصل المدينة بالمصالحة مع اليهود وإبرام العهود، حتى يأمن المسلمين شرهم، واستطاع بذلك دفع ضرهم وأذاهم عن المسلمين.

آثار نزول الضر

لحوق الضرر بالإنسان له آثار ونتائج، منها:

أولًا: الإخلاص لله تعالى عند اشتداد الضر:

عند اشتداد الضر على الإنسان مسلمًا كان أو كافر، فإنه يعود إلى الله وحده كاشف الضر، فينيب ويتضرع إلى الله تعالى، وقد بين الله ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾[الاسراء: ٦٧].

وقوله: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أي: ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله، كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فارا من رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فتح مكة، فذهب هاربًا، فركب في البحر ليدخل الحبشة، فجاءتهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعو الله وحده. فقال عكرمة في نفسه: والله لئن كان لا ينفع في البحر غيره، فإنه لا ينفع في البر غيره، اللهم لك علي عهد، لئن أخرجتني منه لأذهبن فأضعن يدي في يديه، فلأجدنه رءوفًا رحيمًا. فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم وحسن إسلامه، رضي الله عنه

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣٤٤.

Made searchable using ScribeTools.com

وأرضاه[1].

ومعنى الآية: أن الكفار إنما يعتقدون في أصنامهم وسائر معبوداتهم أنها نافعة لهم في غير هذه الحالة، فأما في هذه الحالة فإن كل واحد منهم يعلم بالفطرة علمًا لا يقدر على مدافعته أن الأصنام ونحوها لا فعل لها[2].

وفي معنى هذه الآية جاءت آيات كثيرة، منها: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[يونس: ٢٢].

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[الأنعام: ٦٣].

إلى غير ذلك من الآيات[3].

وقصة فرعون مع شدة كفره يعترف بالله ساعة الضر والهلاك ويرجع إلى فطرته، فالرجوع إلى الله تعالى من سائر الناس ساعة الكرب والشدة دليل على ما هو كامن في نفوسهم من الفطرة التي فطرهم الله عليها[4].

وخص الله الشدة في البحر بالذكر؛ لأن اليأس عند وقوع الشدة فيه أغلب. وهذه الحالة عند اشتداد الضر يستدل بها في إثبات وجود الله تعالى، ونفي الشركاء عنه تعالى، وقد ذكر الإمام الألوسي في تفسيره: «من اللطائف أن بعض الناس قال لبعض الأئمة: أثبت لي وجود الله تعالى ولا تذكر لي الجوهر والعرض. فقال: هل ركبت البحر؟ قال نعم، قال: فهل عصفت الريح؟ قال: نعم، قال: هل أشرفت بك السفينة على الغرق؟ قال: نعم، قال: يئست من نفع من في السفينة ونحوهم من المخلوقين لك وإنجائهم مما أنت فيه إياك، قال: نعم، قال: ذلك هو الله عز وجل فاستحسن ذلك»[5].

ثانيًا: بيان عجز الآلهة المزعومة عند اللجوء إليها حال الضر:

إن ما تم ذكره -سابقًا- من أن الكفار حينما يشتد عليهم الضر ينسوا آلهتهم ولا يرجعون إليها بل يرجعون إلى الإله الحق، الذي يملك النفع والضر، دليل واضح في إثبات عجز الآلهة المزعومة عن دفع ضر أو جلب نفع. وقد ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على ذلك:

منها: ما ذكر مقارنة بين القادر الذي يخلق من العدم ثم يعيد الخلق من بعد فنائه، وبين العاجز وهو الآلهة التي يعبدونها،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٩٦.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٤٣.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ١٧١-١٧٢.
(٤) تفسير السمعاني ٣/ ٢٦١.
(٥) روح المعاني، الألوسي ١٥/ ١١٥.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[يونس: ٣٤].

ومنها: ما وضح الله فيه ثلاث احتمالات لإثبات عجز الآلهة.

قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾[الطور: ٣٥-٣٧].

والاحتمال الرابع هو أن يكون هناك خالق غير هذه المخلوقات وأن يتصف هذا الخالق بصفات لا تشبه صفات المخلوق وهو الاحتمال الصحيح.

وكذلك سيدنا إبراهيم عليه السلام استطاع أن يثبت قدرة الله تعالى بإثبات عجز غيره ممن أدعى الألوهية، في ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة: ٢٥٨].

وغيرها من الآيات الكثيرة التي تدل على عجز الآلهة عند اللجوء إليها في كشف الضر وبيان حقيقتها، وبطلان ألوهيتها[1].

(١) منها: المائدة / ٧٦ و الرعد / ١٦ و طه / ٨٩ و الفرقان / ٣ و النمل / ٦٤ و المؤمنون ٩١-٩٢ و الحج / ٧٣-٧٤ و النحل / ٢٠-٢١ و فاطر / ١٣-١٤.

فصفات الآلهة الضعف والعجز، وهي غير قادرة على الخلق، ولا تستطيع نصر نفسها ولا عابديها، لا تجيب ولا تستجيب، ولا تضر ولا تنفع، فاقدة كل الحواس، لا تملك من أمر نفسها شيئًا، كما صورها لنا سيدنا إبراهيم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾[الصافات: ٩١-٩٣].

وقوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[الأنبياء: ٦٣-٧٦].

انظر كيف استطاع سيدنا إبراهيم عليه السلام إثبات عجز الآلهة وإقامة الحجة على عابديها. كما ستتبرأ من عابديها يوم القيامة، ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾[البقرة: ١٦٦].

وقوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:

Made searchable using ScribeTools.com

١٤].

فتستحيل الألوهية لمن يتصف بهذه الصفات.

ثالثًا: المشرك يزداد طغيانًا بعد كشف الضر عنه، والمؤمن يزداد إيمانًا:

هذا إخبار عن طبيعة الإنسان، وأنه إذا مسه ضر من مرض أو مصيبة اجتهد في الدعاء، وسأل الله في جميع أحواله، ألح ليكشف الله عنه ضره. فلما كشف الضر عنه استمر في غفلته معرضًا عن ربه وكأنه ما جاءه ضر، فكشفه الله عنه[١].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢].

مر طاغيًا على ترك الشكر؛ لنسيانه ما دعا الله فيه وما صنع به، كما زين لهذا الكافر الدعاء عند البلاء والإعراض عند الرخاء[٢].

ذم الله تعالى من هذه صفته وطريقته فقال: ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وهذه صفات الكافر في الغالب، كما ذكر ابن الجوزي: «الكافر يدعو عند البلاء ويعرض عند الرخاء، كذلك المسرفون وهم المجاوزون الحد في الكفر والمعصية في عملهم»[٣].

وقيل: يراد به المشركون الذين يرون أن للأصنام أفعالًا من الشفاء وجلب الخير ودفع الضر، فهم إذا شفاهم الله عظموا أصنامهم وأضافوا ذلك الشفاء لها[٤].

إلا أن الله استثنى من هذه الصفات الذميمة من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد من عباده المؤمنين بقوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[هود: ١٠-١١][٥].

قال الفراء: هذا استثناء منقطع معناه: لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات فإنهم إن نالتهم شدة صبروا، وإن نالوا نعمة شكروا، أولئك لهم مغفرة لذنوبهم وأجر كبير هو الجنة[٦].

فالمؤمن يزداد إيمانًا بكشف الضر عنه، أما الكافر فيزداد طغيانًا وكفرًا، ومن ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(عجبًا لأمر المؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرًا له، إن أصابته ضراء فصبر كان**

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٥٩.
(٢) انظر: البسيط الواحدي، ١/ ٤٩١، معالم التنزيل، البغوي، ٢/ ٣٤٦.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١٣.
(٤) المحرر الوجيز: ابن عطية ٣/ ٤٠١.
(٥) أضواء البيان، الشنقيطي، ٢/ ١٥٢.
(٦) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٧٥.

خيرًا له، وإن أصابته سراء فشكر كان خيرًا له)[1].

قال الألوسي: «فذا فسره الزمخشري بقوله: إلا الذين آمنوا فإن عادتهم إذا أتتهم رحمة أن يشكروا، وإذا زالت عنهم نعمة أن يصبروا، فلذا حسنت الكناية به عن الإيمان. ودلالة «صبروا» على أن العمل الصالح شكر؛ لأنه ورد في الأثر الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر، ودلالة «عملوا» على أن الصبر إيمان؛ لأنهما ضميمتان في الأكثر، أي: الإيمان والعمل: آمنوا وعملوا، فغير مطابق لما نحن فيه أن يراد وجه آخر، كأنه قيل: إلا المؤمن الصالح الصابر الشاكر»[2].

إلا أن بعض المفسرين يرى أن هذه الحالة التي ذكرها الله للداعي لا تختص بأهل الكفر وحدهم بل تتفق لكثير من المسلمين، كما نرى في أنفسنا، ونرى غيرنا، تلين ألسنتهم بالدعاء وقلوبهم بالخشوع والتذلل عند نزول ما يكرهون بهم، فإذا كشفه الله عنهم غفلوا عن الدعاء والتضرع، وذهلوا عما يجب عليهم من شكر النعمة التي أنعم بها عليهم من إجابة دعائهم ورفع ما نزل بهم من الضر ودفع ما أصابهم من مكروه، وهذا مما يدل على أن الآية تعم المسلم والكافر كما يشعر لفظ الناس ولفظ الإنسان[3]، وإن لم يغفلوا نهائيًا كما يغفل الكافر، إلا أنهم يقل اجتهادهم بالدعاء، كما ذكر الله تعالى، أن الإنسان وقت الكرب يبتهل بالدعاء في جميع أحواله، فإذا فرج الله كربه، أعرض عن ذكر ربه، ونسي ما كان فيه، كأنه لم يكن قط. وفيه مواضع كثيرة في القرآن منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[يونس: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

فكل هذه الآيات تشير إلى أن فطرة

(١) سبق تخريجه.
(٢) روح المعاني، الألوسي ١٢/ ١٦.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣١٧، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٢٩.

Made searchable using ScribeTools.com

الإنسان مؤمنًا كان أو كافر عند اشتداد الضر يلجأ إلى الله تعالى، وإذا كشف الضر عنه ازداد طغيانًا وكفرًا، إلا من رحم الله من عباده المؤمنين، فإنهم يزدادوا إيمانًا، خير مثال لهم قدوتنا وحبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم، كان يصلي حتى تتفطر قدماه شكرًا لله تعالى على نعمه[1].

موضوعات ذات صلة:

الابتلاء، الأذى، الخير، الشر، الفتنة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر)، ٦/ ١٣٥، رقم ٤٨٣٧، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، ٤/ ٢١٧١، رقم ٢٨١٩.